

إشكالية بناء الفكر المعماري والعملية التعليمية

د. عبد الباقي إبراهيم

إذا كانت إشكالية العمارة بين الفردية والجماعية قد أفرزت فيما أفرزت إشكالية بناء الفكر المعماري والعملية التعليمية فإن الأمر يتطلب مراجعة الأهداف الأساسية في بناء الفكر المعماري وما يتطلبه من مناهج في العملية التعليمية ، وإذا كان النمط الغربي في التعليم المعماري يهدف إلى بناء الفكر المعماري للطالب حتى يستطيع أن يعبر عن شخصيته من خلال إبداعاته الفكرية فيعني ذلك أن المدرسة الغربية بهذه الصورة تهيء المعماري المنفرد دون أي إرتباط منهجي بينه وبين طرفي المثلث اللذين يؤثران على المنتج المعماري وهما المالك وجهاز تنظيم المباني ، من هذا المنطلق وضعت المدرسة الغربية في أوائل مناهجها مادة التشكيل الذي يعتمد في الأساس على القيم الفنية للفنون التشكيلية كقاعدة يمكن الإنطلاق منها للتشكيل المعماري بنفس المنهج وهذا ما تظهره أهم صورة في الإتجاه الحديث والمسمى بالتفكيك والذي يرى فيه المعماري عمله كقطعة فراغية دون أي اعتبار لمقيدات أو محددات خارجية كتأثير مباشر لقيم الفنون التشكيلية مع وجود الفارق الكبير بينهما ، فأعمال التصوير أو النحت ترى من منظور ثابت ومحدد ، فالصورة تنظر إليها من قريب لإستيعاب ما يدور على سطحها من تغييرات فنية أو حرفية ، الأمر الذي يختلف إستيعابه بين شخص وآخر وهكذا بالنسبة للقطعة النحتية التي ترى من جوانبها المختلفة دون الدخول في قلبها ، مع أن العمارة كفن ترى من الخارج كما ترى من الداخل ليس من منظور ثابت ولكن من منظور متحرك توجده حركة الإنسان في الفراغ الداخلي أو الفراغ الخارجي للعمارة ، هنا يكمن الفرق في أسلوب الإستيعاب البصري لمشاهد العمل التشكيلي عن المشاهد للعمل المعماري ، الأمر الذي يستدعي إعادة النظر في أسلوب إعداد الطالب الذي يدرس العمارة بحيث تتكون له الشخصية الفردية التي تتعامل مع القيم الجماعية وتحت محددات نظم البناء وفي إطار الطابع المعماري المرسوم لكل شارع أو منطقة، وطالب العمارة هنا يمكن أن يكون مهياً للعمل المعماري الفردي في إطار نسج معماري محدد الإطار وطابع معماري تم الإرتضاء به وللعمل به في كل منطقة من هنا يبدأ العمل لإعادة النظر في وضع المناهج العلمية والفنية والإجتماعية والإقتصادية في العملية التعليمية التي تتناسب موادها مع المتطلبات المحلية والحضارية ، لم تعد مناهج تاريخ النظرية المعمارية قاصرة على الإتجاه الغربي الممتد من اليونان شرقاً ثم الرومان غرباً ثم العصور الوسطى ثم عصر النهضة وعصر الإتصالات هذا التسلسل التاريخي الذي بنيت عليه الحضارة الغربية بل لا بد من تحويل هذا التسلسل التاريخي ليكون نابغاً من الجذور التاريخية للمنطقة العربية وعلى مر العصور حتى التاريخ المعاصر حتى يمكن الربط بين الأصالة والمعاصرة في مختلف الفنون ، في العمارة والنحت والتصوير والموسيقى ، هنا يعيش الطالب ماضيه وحاضره بكل المقومات الثقافية والإجتماعية والإقتصادية والسياسية التي أفرزت العمارة العربية على مر العصور التاريخية وليس كتاريخ لأحداث ومعالم معينة ولكن كنظريات معمارية تشرح الإتجاهات التصميمية والقيم الحضارية والنظريات الفنية في كل عمل معماري ، على ألا يقتصر تاريخ نظريات العمارة على عمارة الصفاة ولكن لا بد وأن تضم العمارة الشعبية التي تمثل الغالبية العظمى من أفراد المجتمع ، من هذا السياق العلمي يمكن إستنباط النظرية المعمارية المحلية التي تربط الطالب ببيئته ومجتمعه ، وهذا هو التحدي الحقيقي أمام السيل المتدفق من النظريات الغربية المتضاربة والمتغيرة والمسيرة للتقدم العلمي والتكنولوجي في البناء المتوافق .. من هنا يبدأ البحث عن تكنولوجيا البناء المتوافقة في الوطن العربي التي تتوافق مع إمكانيات ومتطلبات الفئات المختلفة من الشعوب العربية ، فعمارة المجتمع هنا هي عمارة الفئات الفقيرة والمتوسطة والغنية معاً لا تنفصل مكانياً أو فكرياً إذا ما رجعنا إلى القيم الإجتماعية التي تربط هذه الفئات حيث التجانس الخارجي في العمارة وحيث التكامل في المجتمع وحيث المساواة كأسنان المشط في الحقوق والواجبات وحيث الوسطية في

الإففاق هذه هي القيم التي يمكن أن يرتبط بها أطراف المثلث من المعمارى والمالك وجهاز تنظيم البناء ، فى إنتاج العمل المعمارى لكل الإشكالية المعمارية من الفردية والجماعية ، وما يندرج على النظرية الجديدة للعمارة العربية يمكن أن يندرج أيضاً على باقى المواد فى مناهج العملية التعليمية فى التخطيط العمرانى فى الإقتصاد العمرانى ، فى الإجتماع العمرانى فى إنشاء المبانى وبالتالي فى التصميم المعمارى ، الأمر الذى يتطلب مراجعة كاملة لمحتوى المواد فى المناهج المعمارية حتى تخرج متكاملة متناسقة ومتدرجة فى كل سنة من سنوات الدراسة ، من هنا يمكن بناء الشخصية الحضارية للعمارة العربية حيث ثبات المضمون الإسلامى مع إختلاف فى الشكل المعمارى الذى يختلف بإختلاف البيئة والمكان والزمان فلكل مكان وزمان خصائصه الذاتية التى تنعكس على طرق ومواد البناء وترتبط فى نفس الوقت بالجذور التاريخية والثقافية للمكان ، من هنا يمكن فتح الطريق إلى نظرية عالية للعمارة ، فى الإسلام دين كل زمان وكل مكان .